بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

سياق التأليف المعاصر في السيرة النبوية [1]:

تظهر الموضة في الفكر تمامًا كما تظهر في الأشياء.. كالسيارات والثياب وقصّات الشعر. والسائد عالميًا هو الذي يَصنع موضة الفكر تمامًا كما يَصنع الموضة في الثياب وغيره. ولذا نجد أن الكتابات الحديثة في السيرة النبوية عكست الأفكار السائدة عالميًا، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه في مقدمة الكتاب، من أن كل ذي مذهب علماني حاول قراءة السيرة النبوية من خلال مقولات مذهبه الذي آمن به. وجملة: يمكننا تمييز هذه القراءات إلى مراحل حسب السائد في البيئة العالمية والإسلامية، مع الأخذ في الاعتبار عدم وجود فواصل زمنية حادة، بمعنى تداخل المراحل، **والمقصود هو بيان التأثر بالسائد وأن هذه القراءات ما كانت إلا تسكين للشريعة في المذاهب العلمانية، أو نشر المذاهب العلمانية عن طريق شرعنتها.. ادعاء أنها موافقه للشريعة.**

الكتابات القومية:

كانت بداية الفكر القومي العربي من نصارى الشام[2] ثم انضم إليهم أبناء الطوائف (الأقليات) ثم

---

[1] أخذ هذا المقال من مسودة كتاب بعنون: "وما محمد إلا رسول" أعمل فيه الآن.

[2] نشأ الفكر القومي العربي من النصارى واستمر داخلهم وحدهم قرابة نصف قرن حتى جاءهم أهل الطوائف، وكانوا يصارعون مثلهم لإسقاط الخلافة، ثم لحق بهم السمّاعون لهم من أهل السنة. ويمكن تتبع ذلك من خلال الفاعليات والأسماء التي ظهرت في سياق القومية العربية، وهم: بطرس البستاني، وسليم البستاني، وناصيف اليازجي، ومنيف خوري، ونجيب عازوري، ثم قسطنطين زريق، وميشيل عفلق،.. وأول من التحق بهم هم أبناء الأقليات مثل: زكي الأرسوزي، بعد نصف قرن، تقريبًا، من حديثهم عن القومية العربية. والنصارى القوميون هم الذين أدخلوا التحديث كشرط للنهوض (كتابات قسطنطين زريق تحديدًا). ويلاحظ أن خطاب القومية العربية التنظيري كان نخبويًا ولم يتحرك للجماهير إلى في مرحلة متأخرة، وبفعل الحركيين منهم. والحركيون ظهروا بأسباب خارجية (غربية)، فالتغيير كله، أو جله، خارجي: نصراني واحتلال غربي، والثاني فعّل الأول في مجالات الحياة جميعها وليس فقط السياق القومي العربي.

المتأثرون بالغرب من المسلمين. حاول هذا السياق حال تصاعده يومها استخدام السيرة النبوية كأحد أدوات الدعم له في مرحلة من المراحل، وذلك من خلال محاولة دمج التراث الإسلامي كعنصر مكوِّن لهوية قومية عربية، وكذلك إضفاء ملامح قومية عربية على صورة الرسول ﷺ، واستخدام السيرة لتجاوز الطائفية والمذهبية[3] . فحاول هؤلاء التبشير بالقومية العربية وما تفرع عنها من اشتراكية من خلال سرد هؤلاء للسيرة النبوية أو تعليقهم عليها، ومن أمثلة ذلك، ما كتبه النصراني "لبيب الرياشي" تحت عنوان: "نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله"[4] ﷺ وفي كتابه هذا اعتبر الرسول ﷺ منقذًا للعروبة من الفارسية والبيزنطية وباني الأمة العربية [5] ، وما كتبه "محمد عزة دَرْوَزَة"[6] تحت عنوان "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية"[7]،.ومن أمثلة كتابات الاشتراكيين العرب

---

[3] اتجهوا للسيرة ولم يتجهوا للفقه ربما لسهولة التعاطي مع السيرة بخلاف الفقه الذي يحتاج لدراسة وتأصيل واشتباك مع كم هائل من موروث المذاهب الفقهية والعادات الاجتماعية، كما أن الفقه يكشف طبيعة المجتمع المسلم المستقل عن السلطة ونخبة المال (بالأوقاف وأصحاب المروءات وأهل الحل والعقد)، وهذا الأمر من شأنه أن يثير تساؤلات نقدية حول نموذج الدولة القومية المتمكن الآن.

[4] النسخة التي معي طبعة دار ريحاني للطباعة والنشر- بيروت، ط4. د.ت.

[5] وهو نفس ما ذهب إليه ديورانت في سرده للسيرة النبوية، وقد ناقشته بالتفصيل في مكانٍ آخر.

[6] محمد عزة بن عبد الهادي دَرْوَزَة (1888-1984م)، مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي ولد في نابلس وتوفي في دمشق. إضافة إلى نضاله السياسي، كان أديباً ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن. هو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي إلى جانب ساطع الحصري وزكي الأرسوزي.

[7] ينظر: " سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية " محمد عزة دروزه، (القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1367هـ/1948). وفي هذا الكتاب جعل الشروط الأساسية لإقامة كيان عروبي تتمثل في: نظام سياسي اقتصادي موحد، بجانب اللغة العربية، والتراث الإسلامي وسيرة الرسول ﷺ

والتي جاءت لاحقًا في سياق الاشتراكية الناصرية: "محمد رسول الحرية"[8]، "اشتراكية محمد"[9]، و"محمد الثائر الأعظم"[10].

وعمليًا لم تتحول أفكار القوميين العرب إلى واقع مستقر، فقط عملت في سياق الحشد ضد نموذج الخلافة، وعملت في سياق فصل العالم العربي عن العالم الإسلامي، فلم تشيد قومية عربية بديلًا للخلافة العثمانية[11]. تحول العرب، والعالم الإسلامي كله، من نموذج الخلافة إلى نموذج الدولة القومية، هذا في مستوى السلطة، وفي المستوى الثقافي تحول العالم الإسلامي من السياق الإسلامي المحافظ للسياق الليبرالي فكان عصر ما بعد "الثورة العربية" هو العصر الليبرالي لا القومي العربي الذي يعظم النبي، صلى الله عليه وسلم، والعربية، كما ادعوا في كتاباتهم. وهذه منطقة تفكير ينبغي أن تأخذ حقها من المهتمين. ينبغي أن نطرح سؤالًا عن السياقات الحقيقية، وعن الفاعلين الحقيقيين، وعن هامشية دور الأفكار الثورية تلك التي تطفوا على السطح ثم تختفي مخلفة وراءها غير ما كانت تطلبه[12]. أو بالأحرى دراسة كيفية

---

(8) ينظر: "محمد رسول الحرية"، لعبد الرحمن الشرقاوي، (القاهرة، دار الشروق،1410هـ/ 1990). وفيه أهمل الرسالة وتحدث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، كشخص.. إنسان. ومثله ما كتبه توفيق الحكيم تحت عنوان "محمد الرسول البشر" وهي عمل مسرحي (في هيئة حوار) من خمسة فصول. يقول: إبراز البعد الإنساني في شخص الرسول ﷺ. ولا أدري كيف والله يقول: "وما محمد إلا رسول".

(9) ينظر: "اشتراكية محمد" لمحمود شلبي، (بيروت، دار الجيل، 1974م). كتب في ،1962 بإيحاء من جمال عبد الناصر، ونشرت في 1968، ثم أعيد نشرها بعد ذلك.

((10)) ينظر: "محمد، صلى الله عليه وسلم، الثائر الأعظم" لفتحي رضوان، (القاهرة، دار الهلال، 1994م). وفتحي رضوان كان وزيرًا للإرشاد القومي (الإعلام)، في بدايات عهد ما بعد ثورة 1952، وعضوًا مؤسسًا في حزب مصر الفتاة. وأنشأ مجلس حقوق الإنسان المصري، وله حضور في الوسط الثقافي المصري.

(11) حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم الإسلامي لم تستطع أن تتواجد عمليًا، كانت بدايتها من "دولة قومية" كالمغرب العربي حيث أن المغرب العربي كان يتهيأ لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلسًا ثوريًا موحدًا في مصر، ثم استقلوا "دولًا" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، حيث انشق البنجال عن الباكستان.

(12) ينظر للكاتب "هل نفهم ما يحدث" موجود مقال ومحاضرة على اليوتيوب، وينظر: "ثورة تاني؟!!"

استغلال المتحمس من قبل من يملك رؤية أوسع وأدوات أقوى وأكثر، وهو هنا المحتل الغربي الذي استغل الطوائف، والثورات وما تولد عنها من مد عروبي في إنهاء الخلافة العثمانية ثم تحويل العالم الإسلامي لمذهبه هو (الليبرالي) ثم إلى نموذجه في الحكم (الدولة القومية).

السياق الليبرالي:

وهنا لا نؤرخ لمرحلة زمنية، وإنما نشير إلى موضة فكرية (مناهج وضعية) حاولت تسكين السيرة النبوية في مذاهبها العلمانية، فكالقوميين العرب خرج من السياق الليبرالي من حاول قراءة السيرة النبوية على أنها محاولة فردية من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم. فكانت موضة فكرية ليبرالية حاولت قراءة السيرة من خلال مقولة العظمة الفردية، فكتب هيكل عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكبار الصحابة، وكتب العقاد عبقرياته [13] وهذا أشهر ما نشر في هذا السياق وظهرت كتابات أخرى في جنبات الساحة الثقافية، مثل: "محمد- المثل الكامل" [14] ، صلى الله عليه وسلم على نبينا محمد. **ويهم هنا رصد فكرتين رئيسيتين:**

---

[13] تنطوي العبقريات على فكرة رئيسية، وهي أن السيرة، أو التاريخ عمومًا، من صنع أفراد معدودين "العباقرة". وهؤلاء "العباقرة" صنيعة العوامل الوراثية والبيئية التي نشؤا فيها، فكل منهم ورث أباه وتأثر ببيئته!!

ومسمى عبقري أطلق على غلاف ستة كتب فقط من كتب العقاد (120 كتاب تقريبًا)، "عبقرية محمد" ، و "عبقرية عمر"، و"عبقرية الصديق"، و"عبقرية علي" ، وبعض الكتب حمل مسمىٰ العبقريات بداية ثم تغير العنوان في الطبعات اللاحقة، مثل كتابه عن المسيح عليه السلام، فقد صدرت الطبعة الأولىٰ بعنوان "عبقرية المسيح" والثانية بعنوان "حياة المسيح". وحدث العكس مع كتابه عن الشاعر الألماني "جوته" فقد صدر بداية تحت مسمىٰ "تذكار جوته" وتم تعديله بعد ذلك إلىٰ "عبقرية جوته"، وقد كان العقاد يسمح لبعض الناشرين بإعمال أيديهم في عناوين الكتب والمقالات، فكان لهم ظهور حول النص.. في التسويق والعنونة، وفي التأطير الفكري، وهذا شديد الوضوح في تقديمهم لعددٍ من كتبه.

(14) لمحمد جاد عبد المولى

الأولى: أن السيرة النبوية قرئت بمقولات المستشرقين (العبقرية) أو "العظمة الفردية" كما قرأت من قبل بمقولة "القومية العربية"

والثانية: أن أطروحات المستشرقين ظهرت على لسان منتسبين للإسلام، والمثال المشهور هنا هو "على هامش السيرة النبوية لطه حسين، ولكن المثال الأهم، هو ما كتبه الشاعر العراقي "معروف الرصافي" (1875م-1945م)، وأريد أن أقف مع ما كتبه الرصافي قليلًا لشيء أبينه بعد عرض ما انطوى عليه كتاب الرصافي.

معروف الرصافي شاعر وسياسي، شُغِل طيلة حياته بالفعل السياسي والكتابة الشعرية، ومع ذلك قدَّم كتابًا كبيرًا بعنوان "الشخصية المحمدية"[15] ، جمّع فيه الأراء المتطرفة للمستشرقين ودعاة النصرانية عن البعثة المحمدية، وإليك بعض ما توافق فيه الرصافي مع المستشرقين:

ادعى أن "الغاية التي ينزع إليها محمد ﷺ ليست دينية محضة بل هو يريد أن يحدث **نهضة كبرى أو موجة عربية كبرى تكون دينية اجتماعية سياسية يقوم بها العرب** في بدء الأمر على أن تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس"[16]، وزعم أن هذا الإنجاز جاء من صفات في شخص رسول الله ﷺ منها: العقل[17] والحزم والعزم [18] ، والعلم الواسع بما في زمانه (أنكر أميته ﷺ[19]). وزعم أنه ﷺ تعلم من ورقة بن نوفل. وقد أشبعت هذا الكلام ردًا في مناقشتي لديورانت وعباس العقاد وخليل عبد الكريم وسيد

---

(15)كتب في سنة1933م، وطبع في سنة2002 علىٰ حساب عراقي مقيم بأوروبا.

((16)) النص من ص27 ، والسياق من ص20-34:

[17]ص 76 وما بعدها : محمد، صلى الله عليه وسلم، ذو عقلية ممتازة... = متميز تألم لحال المتخلفين من حوله!!. وكلامه هذا يتطابق بشكل كبير مع كلام "جوزيف قزي" في كتاب "نبي الرحمة"، ومع ديورانت في تاريخه.

[18] ص85.

[19]ص 166

القمني غيرهم، فقط أشير إلى أن أفكار المستشرقين تحركت في مساحات واسعة داخل الساحة المسلمة وحولها.

وادعى أن النبي ﷺ تمتع بخيالٍ واسع، وزعم أن المعجزات جاءت من هذا الخيال الواسع [20] . وادعى أن الرسول ﷺ اتخذ من البعد الروحاني (الجنة والنار) والبعد المادي (الغنائم، والتبشير بالفتوحات) وسيلة لتشجيع أصحابه؛ وزعم أن النبي ﷺ كان زعيمًا سياسيًا محنكًا، واستدل بكلمة قالها للملأ من قريش (كلمة تدين لكم بها العرب والعجم) وكأن النبي ﷺ أغراهم بالسيادة على العرب إن هم قالوا هذه الكلمة وكأن الرسول ﷺ كان يملك الزعامة على العرب وسيعطيهم إياها إن هم أطاعوه. وعمي عن أشهر ما واجهوا به النبي ﷺ وهو الخوف من أن تأكلهم العرب إن هم اتبعوه ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ (القصص: من الآية57)، وعمي عن حاله وحال أصحابه ﷺ وهم قلة مستضعفه يخافون أن يتخطفهم الناس ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦ ﴾ (الأنفال: 26)، فلم يكن حال ممكن يبذل الملك لمن اتبعه، بل حال رجل في عددٍ قليل من أصحابه وقد اجتمع عليه من بأقطارها؛ وعمي (الرصافي) عن أن قريش.. في ذات المجلس، عرضت علي النبي ﷺ السيادة والمال وما شاء على أن يترك الدعوة لتوحيد الله ولم يقبل. وقال ﷺ كلمته التي دوّت في جنبات الزمان والمكان: "وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشمسَ فِي يَمِينِي، والقمرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظهره اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ" [21] ، فظاهر الكلام وسياقه أن الدين ممكن بأمر الله وأن من يؤمن بالله وما أنزل على رسوله ستدين له العجم والعرب إن آجلًا أو عاجلًا، وهو ما حدث بالفعل وبعد سنوات قليلة ولنفر من الحضور، وصدق الله ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي

(20) ص 95. أنكر المعجزات وكذلك فعل الذين ظنوا أن الرسول ﷺ جاء من تلقاء نفسه.

(21) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي، 1375هـ/1955م)، ج1، ص266.

ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ (النور: 55). فقد كان رسول الله ﷺ يتحدث عن نصر الله للمؤمنين وليس لشخصه هو ولا لأحد بعينه ممن يسمع، فمن المحكمات البينات المقررة، والمتكررة، في القرآن الكريم أن شخص رسول الله ﷺ لم يوعد بالنصر في حياته هو، وتدبر قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠ ﴾ (الرعد: 40)، وتكرر هذا المعنى في أكثر من موضع من كتاب الله. وهذا ما كانت قريش تفهمه، وما كان يفهمه الملأ في كل زمان ومكان، كانوا يفهمون أن الدخول في الدين يعني التخلي عن الكبرياء في الأرض، وأن يكون التمكين للدين نفسه في هيئة عبادٍ لله يأتمرون بأمر الله وينتهون بنهيه، والدخول في طاعة الله تعني نزع التكبر والاستعلاء والتأله الذي يمارسه الملأ على العوام، وتعني نزع ما في أيديهم من سلطان، وتعني تسويتهم بمن يتسلطون عليهم. ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ (البقرة: من الآية13)، ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ ﴾ (المؤمنون:47)، ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ ﴾ (الشعراء: 111)

وادعى أن النبي ﷺ أباح الكذب تحقيقًا للمصلحة [22] يحاول أن يُلْبس البعثة ثوب السياسة المعاصرة التي تقوم على الكذب والخداع. وإن تحريم الكذب من المحكمات في الشريعة، يقول الله، سبحانه وتعالى وعز وجل،: ﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥ ﴾ (النحل: 105)، وفي الحديث: "إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا ". وفي الحديث: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ – يَعْنِي: الرَّجُلَ – لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ

[22] ص 45 وما بعدها.

عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا "[2] ، وفي الحديث: "أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: لا". وهذا (الرصافي) يستحضر التورية في حالات استثنائية في موطن الحرب.. حال الحرب أو للصلح بين الناس أو لتطيب العشرة مع الزوجة بثناء جميل مما يعجب النساء، ثم يعمم ويقول أباح الكذب سياسة على الناس!!

وإن السياق العام في مكة والمدينة وحال الهجرة يبين بوضوح أن رسول الله ﷺ اختار الصدق بالأفعال والأقوال في مواطنه كلها، قبل البعثة وبعدها، فقد لقبوه بالأمين، وحين اعتلى الصفا يحدثهم بأنه رسول الله إليهم قالوا له : "ما جربنا عليك كذبًا قط" [23] . وقد نعت قريش بالكفر ورفض أن يداهنهم بأقل شيء: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ ﴾ (القلم: 9)، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ (سورة الكافرون). وإن حال النبي ﷺ هو الصدق قبل البعثة وبعدها حتى قال له قومه يوم أعلنهم ببعثته ﷺ "ما جربنا عليك كذبًا قط" ﷺ .

وزعم الرصافي أن الرواية ظلت هي وسيلة النقل للقرآن الكريم والسنة النبوية إلى القرن الثاني، وهذا كذب بين، فقد كان الصحابة يكتبون القرآن الكريم بين يدي النبي ﷺ ويعرف القاصي والداني "كتبة الوحي" كمعاوية بن أبي سفيان وسعد بن أبي السرح وعلي بن أبي طالب وغيرهم، فقد تلقينا نصًا مكتوبًا ومنطوقًا.

والمقصود من الاسترسال في هذا المثال مع أنه غير مشهور هو بيان أن أفكار المستشرقين كانت معروضة على من يقتبسها دون تثريب منهم عليه، فاقتبس كل واحدٍ حسب جهله بالدين ومكر الكافرين، أو حسب جرأته على الجهر بالباطل. فمنهم من أخذ فكرة أو فكرتين وتحرك بهما على أنهما من بنات أفكاره ولم ينكشف أمره إلا بعد انتشرت ثقافة الغرب وعرَّى الله باطله بمن استخدمهم في نصرة دينه

---

[23] ينظر: "صحيح البخاري"، (دمشق، دار ابن كثير ، 1414هـ/1993م)، كتاب التفسير، باب "تفسير سورة تبت يدا أبي لهب" ، وينظر سيرة ابن هشام السقا، ج1، ص351.

ككثير من أفكار طه حسين والعبقريات، ومنهم من نقل نقلًا مباشرًا عن الكافرين كهذا المأفون عدو نفسه؛ ومنهم من أعاد صياغة حديثهم وكأنه يتحدث من تلقاء نفسه، كخليل عبد الكريم وسيد القمني[24]. فقد كانت المرحلة نقل عن الكافر أو نشر لأفكاره، أو تسكين للسيرة والشريعة في المذاهب العلمانية الحديثة التي اجتاحت العالم الإسلامي.

ومن الأمثلة التي ينبغي أن نقف عندها لبيان التبعية الفكرية للمستشرقين.. لبيان أن الأدوات الغربية استخدمت لفهم البعثة المحمدية.. لبيان أن أصحاب المذاهب العلمانية قرؤوا السيرة النبوية، والشريعة عمومًا، من خلال مذاهبهم العلمانية، ما قام به عبد المجيد الشرفي وطلبته. وأنظرُ لتجربة الشرفي من زاوية محددة وهي أن هؤلاء استخدموا أدوات المستشرقين المنهجية (النقد النصي تحديدًا) وحاولوا بكل تعسف تطبيقها على القرآن الكريم. فبحثوا عن "مخطوطات للقرآن الكريم" يقرؤونها قراءة نقدية. وغاب عنهم أن هذه المناهج تصلح مع الكتاب "المقدس" وذلك لأنه لم يظهر إلا مخطوطات، بخلاف القرآن الكريم الذي نقل إلينا بالضبط الشفهي بجوار الضبط الكتابي وذلك منذ نزوله على رسول اللهﷺ . فالنبي ﷺ تلقى القرآن من الله سبحانه وعز وجل عن طريق ملك الوحي جبريل، عليه السلام، وضبط جبريل للرسول ﷺ النصّ. فقد كان يراجعه كل عام مرةً وراجعه في العام الأخير مرتين والحديث في صحيح البخاري (وكانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِن رَمَضَانَ، فيُدَارِسُهُ القُرْآنَ)، والصحابة، رضي الله عنهم، تلقوا القرآن من النبيﷺ، مشافهةً وكتبوه بين يديه، ورتبه لهم، فكان كل لفظٍ مأخوذ عنهﷺ وكل قراءة أخذت عنهﷺ ، وكان ترتيب السور وترتيب ما فيها من آيات منه ﷺ، وكان الجمع من أبي بكر جمعًا للمحفوظ والمكتوب والمرتب في آياته وسوره بين دفتين (مصحف)، ثم جاء عثمان فضبط اللفظ مع النطق ببعض الإشارات (كالألف الصغيرة بعد الميم في ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. وما لا يحتمله الرسم فرَّقه في النُسخ التي وزّعها على الأمصار، فكان مجموع نسخ عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يحتوي على كل القراءات. وبكل قراءة قرأ قوم. بمعنى أن القراءات موجودة من أول يوم نقلًا عن رسول الله ﷺوليست من صنع الصحابة

(24) خليل عبد الكريم يكاد يتطابق مع كتابات جوزيف قزي، وكذلك سيد القمني وناقشتهما كل في موضعه.

والذين من بعدهم كما يزعم هؤلاء. أما "عبد المجيد الشرفي" وتلاميذه ومن وافقهم. فلكثرة مخالطتهم المستشرقين والثقافة الغربية دخلوا في حالة متوهمة، حيث ظنوا أن القرآن الكريم مضبوط بالكتابة فقط، وأن القراءات حالة من التضارب والاختلاف وظنوا أن القراءات ظهرت لاحقًا بفعل دخول الأعاجم. ففتشوا عن أقدم مخطوطة على اعتبار أن البحث "العلمي" لا يعمل إلا على مخطوطات (وثائق)، فوجدوها في اليمن مهترئةً ناقصةً رقّعها مستشرق أعجمي لا يحسن العربية، فأخذوا نسخته المرقّعة هذه وراحوا يدرسون القرآن منها، ويقولون: حُرر في أزمان متعاقبة، وعبثت به أيدي البشر!! [25] و﴿ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ سورة التوبة: آية ٣٠.

المتوافقون مع التنصير كلية:

في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين الميلادي بدأت موجة جديدة شديدة التطرف، والبذاءة اللفظية، والسوقية في التعامل، ومن أشهر هؤلاء خليل عبد الكريم وسيد القمني، والكذاب اللئيم زكريا بطرس، وجوزيف قزي، والسياق الذي أنبت هؤلاء هو سياق التنصير المدعوم من الإلحاد العالمي، ولم يأت هؤلاء بجديد فقط أعادوا ما قيل من قبل، وأكدوا الحقيقة التي نحاول إبرازها وهي تبعية المثقف المعاصر للفكر وإن شاء الله نناقش المفاهيم من خلال من اشتهر منهم.

---

[25] ينظر: "**المصحف وقراءاته**" لعبد المجيد الشرفي، محررًا، (الرباط، مؤمنون بلاحدود،2016م)، ص15-23. وللوقوف على تعمدهم الخطأ في كثير من معالجتهم من حيث المنهجية والتطبيق ينظر: "**نقد كتاب المصحف وقراءته**" لمحمد أمين بن مصطفى العوني، (تونس، دار المازري،2021). وللوقوف على فساد منهجية المستشرقين وتعمدهم الخطأ حال دراسة القرآن الكريم ينظر: "**المستشرقون والقرآن الكريم في المراجع العربية**"، لعلي بن إبراهيم النملة، (بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، 2010م). وللوقوف على نماذج مشابهة فيما يتعلق بالمخطوطات ينظر: "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1996م)، ص290، 291. وينظر: "الفكر الأصولي واستحالة التأصيل"، لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، دار الساقي،1999م)، ص45.ومن أفضل ما كتب عن جمع القرآن والقراءات العشر والأحرف السبعة ينظر:"تسهيل الشاطبية: شرح الأصول"، لعزة عبد الرحيم سليمان (القاهرة، مفكرون للنشر والتوزيع،1441هـ/ 2020م)، ص9-33.

وماذا أفعل هنا في هذا الكتاب؟

أحاول، بحول الله وقوته، كشف هذا السياق من التبعية للآخر، أو بالأحرى من تفعيل الآخر للتابعين له، وإظهار مقولاتهم الرئيسية والرد عليها، أعرض المقولة وأشهر المتحدثين بها لأجمع بين: كشف السياق وكشف المقولات وكشف المتحدثين بالباطل. أرجو أن يكتبني الله ممن جاهد المعتدين من الكافرين والسماعين لهم والمنافقين بالقرآن الكريم ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ (الفرقان: من الآية 52). والله أسأل عونًا وقبولًا، وبركة، إنه كريم منان.